I- البلاغة الكلاسيكية والخطاب:

لم تكن دراسة التواصل كنظرية علمية سطع نجمها في العقود الأخيرة بعيدة عن الإشكالات التي ترتبط بتحليل الخطاب في مختلف العلوم النظرية والعملية (فلسفة، أدب، لسانيات، نقد،...) التي أصبحت تهتم بالخطاب في ذاته وفي علاقته بباقي الحقول المعرفية الأخرى، وتسعى إلى إبراز القيم الجمالية والمعرفية والفكرية التي ينشئها الخطاب كيفما كان جنسه بحثا عن إحداث تواصل دلالي؛ وتواصل تداولي أو تواصل قصدي،... حسب الاتجاهات والمذاهب.

ومن بين أهم الجوانب التي اهتم بها محلّلو الخطاب داخل نظريات التواصل؛ الجانب البلاغي والجانب الخطابي بصفة عامّة، لما له من حضور فعّال في كل نشاط إنساني سواء تعلق الأمر بإنتاج الفكر أو ممارسته ممارسة تتجه بالأساس إلى الآخر؛ لأن الإنسان لا يفكر أو يتفلسف أو يكتب أدبا أو غيره؛ بمعزل عن العالم.

إنّه يفعل ذلك ليتواصل مع محيطه الخارجي تواصلا مستمرّا وفعّالا مع كل ما يحتويه هذا المحيط من مؤثرات ومحفزات وإكراهات وإشكالات وافتراضات،... ومن هنا يدخل الجانب البلاغي كآلية رئيسة في تشكيل الخطاب لتحقيق تواصل مميّز ومثمر بين الناس.

واليوم نعيش عودة قوية للبلاغة، إنّها تعرف حضورا متميّزا في مشهد علوم التواصل، لاعن طريق تعليمها في الثانويات والجامعات، لكن عن طريق الإشكالات التي تطرحها داخل الخطابات اليومية التي يتداولها الناس فيما بينهم، داخل المؤسسات الاجتماعية، والسياسية، والبرلمانية، والحكومات، والشارع، والمقهى، والمترل،...[1].

1)- إشكالات التواصل والحجاج (مقاربة تداولية معرفية)، رسالة دكتوراه، عبد السلام عشير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، المغرب، 1999-2000، ص: 13.

ولقد أصبح العالم يستهلك البلاغة تحت ضغط الحاجة الـتي تقتـضي تواصلا يجلب المنفعة والتفاهم، وقضاء المآرب والمصالح والاتفاقـات، إنّهـا الإشكالات التي تطرحها نظرية الحجاج باعتبارها في الحقيقة الخيط الـرابط لكل النقاشات التي دارت حول الخطاب والتواصل منذ القديم إلى اليوم، من ديمقراطية «أثينا» إلى ديمقراطية الأمم المتّحدة ومجلس الأمن الدّولي(1).

I-1- البلاغة وجمالية اللّغة:

تتميّز الأمّة العربية بخصوصيات عديدة من بينها لغتها التي درج الباحثون على الانتباه إليها، فالعربي شديد التأثر بالألفاظ وموسيقاها ومعانيها يـشدّه حسن الكلام ورونقه شدّا، حتى كانت فنون الشعر والخطابة من نـشاطاته البارزة، وحتى أصبح التميز فيهما أمرا يأتي صاحبهما بحظ أوفر، وكثيرا مـا حقق له حظوة ومكانة في أكثر من مجال، كأن يأتيه بالجاه أو المال أو العطف أو الصفح، فخليفة المسلمين يمكن أن يعفو عنه عن إثم أو جريرة والآخر قـد يهبه ما يريد، وذلك كله إنّما يعود إلى سحر الكلمة وعذوبتـها، فالكلمـة تحمل معنى صادقا دقيقا يتأكّد بردود فعل صاحبها، حيث تقترن بذاته اقترانا يجعله شديد التأثر بالبيان الساحر(2).

والواقع أن العربي لا يزال يتفاعل مع مفردات لغته التي تمسّ مـشاعره وأحاسيه وطاقاته وجذوره وامتداده ضمن واقعه القومي والاجتماعي، ولعل هذا الذي أدّى بالدارسين إلى البحث في طبيعة اللّغة ووظيفتـها ودلالاتهـا، وخاصة ما تعلق بالبلاغة كون البلاغة نظام الخبرة باللّغة وجمال الكلام.

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)- مقال: التصوّر اللّغوي في البلاغة القديمة، د. رمضان كريب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، د.ت، ص: 1.

ومهما يكن، فإن اللّغة لا تستمدّ جماليتها من تكوينها الذاتي فقط، أي باعتبارها أصواتاً وتراكيب ومجازات ذات طاقة تأثيرية مباشرة، ولكن من علاقتها بالجنس الأدبي الذي تذعن له في صوغ أبنيتها إذ تصبح اللغة بموجب هذه العلاقة في أفق جمالي جديد، حيث يعمد المبدع إلى نسج خيوطها واختيار ألوانها متفقا مع ما يقتضيه هذا الإطار من مكونات وثوابت وعلى هذا النحو تتحدّد جمالية اللّغة وأسلوبيتها بوظائفها التصويرية في سياق جنس أدبي محدّد وكأن طاقة اللّغة في التأثير تكمن في الجنس الأدبي نفسه باعتباره أداة فنية متميزة يناط بها توصيل رسالة إنسانية(1).

ولعلّ شيئاً شبيها بهذا قد حصل للتفكير البلاغي العربي القديم الذي بدأ مرتبطا بجماليات اللغة العربية كاشفا عن خصائصها التعبيرية والفنية، فهذه اللّغة التي قال عنها ابن جنّي إنها «أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»(2)، تتجاوز وظيفتها التواصلية النفعية إلى وظائف جمالية وقف التفكير البلاغي الموروث بتأملها بشغف كبير، لم يلبث أن تمخّض عن «أبْوَاب» ومباحث مهمة تمثل حصيلة استقصاءٍ دقيق لجماليات هذه اللغة التي وصفت بالحكمة والإتقان(3).

والحق، إن هذا التفكير البلاغي قد وجد في الشعر ضالته المنشودة حيث اعتبر هذا الجنس من الكلام شاهداً على أساليب العرب، فهو النموذج الأمثل

1)- مقال: البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، د.محمد مشبال، عالم الفكر، المجلد 30، العدد 01، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو/سبتمبر2001، ص: 51-52.

2)- الخصائص، ابن حنّي، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1986، ج1/34.

3)- البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 58.

الذي يستمد منه العالم الحجّة لإثبات خصائص العربية في التعـــبير الجمـــالي، وهكذا تحولت بلاغة الشعر إلى سند يترافع إليه علماء اللغة والبلاغة للـــدفاع تارة عن حكمة العربية وتارة عن إعجاز القرآن[1].

وبناء على هذا الاعتبار، عدّ الشعر كأهم عنصر في بنية ثقافة المجتمـــع العربي، وكنمط للتعبير الذي شغلهم عن التفكير في أنماط أخرى؛ لأن الشعر آنذاك كان «علم العرب الذي لم يكن لهم علم أصح منه»[2].

I–2– الشعر معياراً للبلاغة:

يرى معظم الباحثين أنّه من الشعر انطلقت معظم الأفكـــار البلاغيـــة والنقدية في تراثنا العربي، ولن يعترض على هذا سوى القول إنّ طبيعة هـــذه الأفكار لم تكن تخلص للتعبير لشعري كما تفهمه اليوم ودليلهم في ذلك مـــا شهدته الخطابة من انتعاش وازدهار في العصور الإسلامية الأولى ممّا كان لـــه تأثير قوي في صياغة التفكير البلاغي الذي يعدّ الجاحظ أحد ممثليه الأوائل[3].

وربّما يبنى رأي هؤلاء النقاد على أنّ السمة الخطابية في الشعر العـــربي الذي لم يكن ممكنا فصله عن الوظيفة الإقناعية التي ارتبطت به بحكم المكانـــة السامية التي احتلها في سلم القيم الاجتماعية، وحتى عندما تدهورت مكانته في المجتمع العربي، ظل يمارس الإقناع ولكن هذه المرّة بطريقـــة أخـــرى، لم

1)- المرجع نفسه، ص: 58.

2)- طبقات الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق وشرح: محمود شـــاكر، القـــاهرة، 1952، ص: 22.

3)- التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السّادس، مشروع قـــراءة، حمودي صمود، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981، ص: 185.

ينفصل فيها الشعر العربي عن الحكمة والمثل السائر مثلما لم ينفصل عن ممارسة التأثير في نفوس الممدوحين واستجدائهم للعطاء[1].

هكذا كان الشعر موضع نظر لتفكير البلاغي والنقدي، ومنه انبثقت معظم الأفكار والأصول الجمالية الموروثة، حتى إن الدارس لا يكاد يجد أي أثر للأجناس النثرية في مسار هذا التفكير الذي ظلت مفهوماته ومصطلحاته تدور في فلك الشعر ولكن هذا لا يعني أننا لا نجد أدنى اهتمام بالنثر، فالواقع يثبت أن هناك نقاداً أولوا عناية واضحة بالنثر نذكر منهم ابن وهب وأبا الهلال العسكري وابن عبد الغفور الكلاعي وابن الأثير[2].

ومن منظور «ألفت كمال الروبي» فإن العناية بالنثر لم تتجاوز تصنيف أجناسه وتحديد خصائصه الأسلوبية الشكلية التي تميّز كل جنس نثري عن الآخر، وتميّز النثر عن الشعر كما أنّ ذلك الاهتمام بالنثر لم يتجاوز جنسي الخطابة والترسل إلى الأجناس النثرية السردية[3].

ولعلّ الناقدة تكون قد انطلقت في نقدها هذا من قول ابن عبد الغفور الكلاعي وهو من نقاد القرن السادس «وجعلت أبحث عن ضروب الكلام فوجدتها على فصول وأقسام منها: الترسيل، ومنها التوقيع، ومنها الخطبة، ومنها الحكم المرتجلة والأمثال المرسلة، ومنها المروّى والمعمى ومنها المقامات والحكايات، ومنها التوثيق، ومنها التأليف، وتأملت أيضا،... الأسجاع

1)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 62.

2)- المرجع نفسه، ص: 62.

3)- الموقف من القص في تراثنا النقدي، ألفت كمال الروبي، مركز البحوث العربية، القاهرة، 1991، ص: 121.

فوجدهَا على ضروب وأنواع فمنها ما يجب أن يسمّى المنقاد ومنها ما يجب أن يسمّى المضارع ومنها ما يجب أن يسمّى المشكّل»[1].

ولقد أفرد الكلاعي لكل جنس نثري حديثا خاصا، أما فيما يخصّ النثر السردي فقد اكتفى بذكر بعض الأعمال المعينة بقوله: «ومن الحكايات المختلفة والأخبار المزوّرة المنمقة، كتاب (كليلة ودمنة)، وكتاب (القائف) لأبي العلاء المعرّي، وقد تكلموا فيه على ألسنة الحيوان، وغير الحيوان»[2].

ومن هذا الموقف أظهرت «ألفت كمال الروبي» أن نقادنا «لم يعرضوا لمفهوم واضح ومتكامل للقص بوصفه جنسا أدبيا له وجوده المستقل بين الأجناس النثرية الأخرى فلم يدرجوا القصص ضمن تصنيفاهم لأشكال النثر المختلفة»[3]، ولعل السبب في ذلك يعود إلى افتقار القص للوظائف النفعية المباشرة التي كانت للخطابة والكتابة الديوانية، كما أنّ أصحابه لم يحظوا بالمترلة التي حظي بها الخطباء والكتاب، وما يؤلفونه موجه للعوام والجهال[4].

ومهما يكن، فقد حذا كتاب النثر حذو الشعراء في أساليبهم وأغراضهم إلى درجة كادت تتوارى فيها الحدود بين لغة الشعر ولغة النثر، ولعل هذا الذي أدّى بالكلاعي إلى القول: «وتأملت... النثر فوجدت فيه من أنواع البديع ما في النظم فأغفلت ذكرها في هذا الكتاب: لأن كثيرا من العلماء قد

---

1)- أحكام صنعة الكلام، محمد عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، 1966، ص: 95-96.

2)- المرجع نفسه، ص: 208.

3)- الموقف من القص في تراثنا النقدي، ص: 121.

4)- المرجع نفسه، ص148.

عنوا بهذا الباب»[1]، كما ذهب ابن أبي الإصبع المصري إلى أن أكثر أنـــواع البديع تعم الشعر والنثر معاً وقليل منها يخصّ الشعر[2].

وبعد سياق المفاضلة الذي خضع له كل من جنسي النثر والشعر، نخلص إلى أن موقف النقاد اللغويّين من الشعر كان واضحا فهو عندهم (أي الشعر) مصدر اللغة الفصيحة ومعيار البلاغة والفن، ولا مكان عندهم للنثـــر ومـــن هؤلاء النقاد الأصمعي وابن السلام الجمحي.

أما موقف نقاد الشعر الأدباء فإنهم لا يرون بأساً في أن يعرضوا قـــضايا الشعر النقدية بالإحالة إلى المنثور من الرسائل والمقامات والجوابات[3]، ولقد لجأ ابن طباطبا إلى الرسالة في حديثه عن بناء القصيدة[4]، ونعت قدامة النثـــر بالمذهب[5]، والمقصود به طريقة التعبير الّتي يتميّز عنها الشعر إن النثر عندهم يشمل كل ما لم ينظم في أبيات ويقصد[6]، من خطب وأمثـــال ورســـائل

1)- أحكام صنعة الكلام، ص: 95.

2)- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القـــرآن، ابـــن أبي الإصـــبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القـــاهرة، 1383، ص: 95.

3- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص:80.

4)- عيار الشعر، ابن طباطبا، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المـــانع، مطبعـــة المـــدني، المؤسسة السعودية بمصر، توزيع مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1985، ص: 7-9.

5)- نقد الشعر، قدامه بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القـــاهرة، ط3، 1978، ص:58.

6)- نقد الشعر عند العرب، حتّى أواخر القرن الخامس، أحمد الطرابلـــسي، ترجمـــة: إدريس بالمليح، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1993، ص: 119.

ومقامات وأجوبة الفصحاء[1].

وانطلاقا من هذا فإن الاهتمام النقدي بالزوج: «الشعر والنثر» يتدرج في إطار تحديد لغة الشعر وما يميزها عن لغة الكلام العادي أو اللغة العلمية (لغة البرهان) أو لغة الخطابة على اعتبار أنّ لغة الشعر هي النموذج الأعلى وهي التي تجسد المثال الرفيع للفن اللّغوي الذي قامت عليه البلاغة والنقد.

وعلى هذا الأساس خضعت الكتابة لأساليب الشعر وأصبحت لغته النموذج الذي ينبغي احتذاؤه لبلوغ مرامي البلاغة وقد عبّر أبو هلال العسكري عن أن حاجة كل متأدب إلى الشعر ماسّة وفاقته إلى روايته شديدة فهو «ديوان العرب وخزانة حكمتهم ومستنبط آدابهم ومستودع علومهم»[2]، ومنه تنزع الشواهد وتؤخذ ألفاظ اللغة الموسومة بالجزالة والفصاحة والفحولة وكذا الغرابة[3].

وعلى هذا الاعتبار، لم يكن للكاتب أو الخطيب بدّ من أن يتّكئ على الشعر إذا أراد التأثير في النفوس سواء فيما يلجآن إليه من تضمن أو اقتباس من الأشعار، أو فيما يعتمدانه في صياغة أسلوبهما، وغير خاف ما يضطلع به الشاهد الشعري في جميع حقول الثقافة العربية الإسلامية القديمة وقد قال ابن نباتة: «من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلاّ منه، أعني أنّ العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللّغويين يقولون: «قال الشاعر» وهذا كثير في الشعر، فعلى هذا فالشاعر هو صاحب الحجّة، والشعر هو الحجّة»[4].

1)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 63.

2)- المرجع نفسه، ص: 66.

3)- نقد الشعر عند العرب، ص: 120.

4)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وبعدُ هل يكون إقرار بعض النقاد بأفضلية الــشعر ليحجــب المكانــة الحقيقية التي حازها النثر؟

I-3- بلاغة القرآن أم بلاغة الشعر؟

هناك رأي سائد قديما وحديثا يعتبر البلاغة علما كليا يشمل الشعر والنثر معاً، ومن ثم فإن المبادئ المستخلصة والأصول المقررة لا تقتصر على أحــدهما دون الآخر ولكن تأكيد هذا الرأي يجعلنا نقرّ بإغفال البلاغيين للفــروق بــين الأجناس الخطابية إذ يعتبر الشعر الجنس الأدبي الذي وجه البلاغة العربية وأملى عليها مقولاته ومصطلحاته ورسم لها الطريق الذي نهجته فيما بعد، رغــم مــا كانت تموج به الثقافة العربية الإسلامية من أجناس إبداعية أدبية أخرى، ولهــذا نجد من يرى في القرآن، النص الذي قام حوله التفكير البلاغي[1].

ولقد ظهرت دراسات بلاغية منذ القرن الثاني مع مفسرين لغويين: الفراء (207هـــ) وأبو عبيدة (210هـــ) والأخفش (215هـــ) ولكنها لم تتبلور حتى القرنين الرابع والخامس مع ظهور الكتابات الخاصّة بالإعجاز. ولكن ما يمكن إثباته هو أنّ البلاغة التي نشأت حول النص القرآني تدين في أصــولها لمعيــار الأسلوب الشعري الذي ترسّخت بلاغته في الذهنية المتلقية، وتجذرت قيمــه الذوقية[2] ممّا جعل أبا عبيدة يتخذه حجّة لإثبات أنّ القرآن نص عربي يجري على سنن كلام العرب وخصائصه[3].

1)- البلاغة ومقولة الجنس الأدبي: ص66- 67.

2)- المرجع نفسه، ص: 67.

3)- مجاز القرآن، أبو عبيدة، تحقيق: فؤاد سزكين، مؤسسة الرســالة، ط2، بــيروت، 1981، ج18/1.

وانطلاقا ممّا ذهب إليه أبو عبيدة وغيره من المفسرين يمكننا القـــول إنّ القراءة التي شاءت الدفاع عن أسلوب القرآن قد وقعت في تمجيد أســـلوب الشعر لما يحوزه من تأثير في نفوس المتلقين، وبذلك كانت إشـــباعاً للـــذوق المتلقي واستجابة لمعاييره الجمالية. وهي لذلك -أي القراءة البلاغية- لم تفلح في ضبط الخصوصية الأسلوبية للقرآن، وذلك أنها قيدت نفسها بالإجابة عن إشكال محدّد يتمثل في أن أسلوب القرآن مماثل لأساليب العرب المتداولـــة في شعرها و لم يخرج عنها[1].

ونظرا لاهتمام مناصري بلاغة النص القرآني، صدرت قراءات بلاغيـــة إعجازية من مبدأ تفوق الأسلوب القرآني على بقية الأساليب البشريّة. وهذا الذي يستشعره قارئ أهم مصنف بلاغي في هذا الباب، وهو كتاب «دلائل الإعجاز» وبغض النظر «عمّا يؤمن به عبد القاهر الجرجاني من تفوق بلاغة القرآن فإن القارئ لا يعثر في كتابه على خصائص مميزة لأسلوب هذا النص الجديد، وكأنّ عبد القاهر يستند إلى جمالية الأسلوب الشعري نفسها لإثبات تفوق الأسلوب القرآني»[2].

وعلى هذا النحو ظلت البلاغة هي الأخرى أسيرة جماليات الشعر، من حيث أرادت أن تثبت جمالية القرآن؛ وبالتالي لم يتم الإقناع بأفضلية التعـــبير القرآني دون الرجوع إلى ما يناظره في ذهنية المتلقي، وهكذا كـــان المنـــهج الإقناعي المتحكم في الدرس البلاغي الإعجازي طريقا لإثبات التشابه مـــرّة أخرى وليس التمايز النوعي.

---

1)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 68.

2)- المرجع نفسه، ص: 68.

I–4– خصائص البلاغة:

لم تكن البلاغة في العصر القديم مرادفة لنظرية الأسلوب، ولقد أشـــار «بول ريكور» (Paul Ricœur) إلى تعدّد المجالات التي كانت تشغلها بلاغة أرسطو، وهي نظرية الحجاج التي تمثل المحور الأســـاس ونظريـــة الأســـلوب ونظرية تأليف الخطاب: «وما تقدمه لنا الكتابات المتأخرة في البلاغة لا يعدو أن يكون مجرّد بلاغة مقيدة،...فقد أصبحت تقتصر على نظرية الأسلوب ثم بشكل أضيق على نظرية المجاز»[1].

وهكذا تقلصت البلاغة إلى أحد أجزائها المتمثل في الأسلوب أو العبارة Elocution، وبذلك أصبحت مرادفة للأسلوبية، وبعد أن كان مفهوم البلاغة قائما على الإقناع عند المفكرين الأوائل، أصبح فيما بعد يفيد «فـــن تجويـــد الكلام»[2].

وبناء على المفهوم الجديد للبلاغة «فن تجويد الكلام» صارت البلاغـــة هي اختيار التعبير المزخرف الذي يمكنه خدمة الوظيفة الإقناعيـــة. وهكـــذا أصبحت البلاغة التي تحظى بالتقدير هي تلك التي تتغيّا المحسنات أي بلاغـــة تجويد الكلام وخلق أنماط لغوية جميلة[3] وبذلك لم تعد البلاغة فنـــا يـــسخّر الوسائل اللّغوية من أجل غاية خارجية.

ومهما تباينت الأساليب الداعية إلى أفول نجم البلاغة بمعناها القديم فلعل

---

1)– La Métaphore vive, Paul Ricœur, Paris, 1975, le seuil, P: 13.

2)– مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 70.

3)– Rhétorique de la poésie, Group Mu, 1982, le seuil, P: 13.

– نقلا عن البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 71.

انتقال موضوعها من الخطابة إلى الشعر، أن يمثل عاملا في تفسير تحوّلها من مذهب شامل إلى نظرية في الاستعارة والكناية(1).

وفي النهاية نخلص إلى أن لكل جنس أدبي جماليته الخاصة وبلاغته المتميزة، كما نستنتج أن الشعر هو الجنس الأدبي الذي خضعت له التصورات النقدية والبلاغية الموروثة، كما عُدّ الأسلوب الشعري معياراً جماليا يوجه الأنظار وتتحاكم إليه الأصول والمبادئ ومعيار كذلك في معظم الأنظار الأسلوبية والبلاغية المعاصرة.

I-5- معيار الوظيفة:

لما كانت وظائف اللّغة متعدّدة، انعكس ذلك على بنيات الكلام، حيث ارتبط اختيار النمط التعبيري بنوع الوظيفة المقصود توصيلها في الرسالة اللّغوية.

وغير خافٍ «أنه لا تستقل الرسالة بوظيفة واحدة، فقد نجد في الرسالة الواحدة وظائف عدّة، وما يميّز رسالة عن أخرى هو طبيعة النظام التراتبي الذي تتّخذه هذه الوظائف اللّغوية داخلها؛ حيث يهيمن بعضها على الآخر فيما يشبه تقدمها إلى الواجهة أو تراجعها إلى الخلف»(2).

واعتمادا على هذا الرأي، نجد في النص الشعري سيطرة الوظيفة الشعرية بينما تهيمن الوظيفة الإقناعية في النص الخطابي؛ «فالشاعر يلجأ إلى تكثيف وسائل التعبير الجمالي بصورة غير مألوفة قصد وضعنا قسرا في موضع الانتباه، أما الخطيب الذي يتغيّا الإقناع فإنّ وسائله التعبيرية مختلفة عن تلك التي

1)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 75

2)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 81.

يستخدمها الشعر»[1].

وهكذا، فإن إقرار الفلاسفة المسلمين بوجود تشابه بين الشعر والخطابة في كثير من وجوه الاستخدام اللّغوي المتّسمة بالاتساع والتجوّز، لما يحتاج إليه الخطيب في العادة من وسائل «التخييل» الضرورية في تحقيق الإقناع، لا يلغي وجوه الافتراق بينهما، فهم يرون أن الخطيب ينبغي له الإكثار من استعمال التشبيهات والاستعارات وكلّ ماهو خاص بالشعر، كما ينبغي أن يكون اختياره لها على أساس قربها إلى الأفهام وشهرتها حتى لا يقع في كلامه غموض أو غرابة ممّا يعدّ من سمات الشعر[2].

وعلى هذا النحو تحدّد وظيفة «التخييل» سمات الشعر المتمثلة في اللجوء إلى صور البديع بشكل لافت للنظر يثير التأمل الذهني والوجداني، كما تحدّد وظيفة «الإقناع» سمات الخطابة التي تعمد إلى الاستعمال الحقيقي والمنطقي للّغة، ولا تلجأ إلى استخدام الأسلوب الشعري إلاّ بضرب من الاقتصاد حفاظا على إيقاع التصديق[3].

وعلى الجملة، فإن الشعر يَتَوخّى بالإضافة إلى التخييل، التأثير في سلوك الجمهور المتلقي، ومن هنا حاجته إلى وسائل الإقناع، وكذلك الخطابة في حاجتها إلى وسائل التخييل لإحداث الالتذاذ المصاحب للإقناع، وبذلك يجوز لكل منهما وظيفة الآخر ولكن في موقع ثانوي.

1)- المرجع نفسه، ص: 81.

2)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 81.

3)- المرجع نفسه، ص: 81.

I-6- وظيفة البلاغة القديمة:

بعد الخوض في قراءة الموروث البلاغي والنقدي السابق وبعد تحديد جملة من التصوّرات والخصائص، يمكن القول إن اللّغة تتبع التطوّر الاجتماعي الذي تصيبه الأمة، ذلك التطوّر الذي يحدث لعوامل كثيرة؛ أهمها التغيّر الاجتماعي وما يتبعه من تطوّر في القيم، ومنه يمكن الجزم بأن البلاغة جزء أساس من حياة المجتمع القديم والحديث، فهي أداة الترويج والأخذ والعطاء والسياسة وأمور الحكم(1).

وعلى سبيل المثال فإن الديمقراطية الحديثة لا تقلّ اعتماداً على استعمال البلاغة، فنظام المعارضة الحزبية لا يزال وثيق الصّلة بها، ولعل المتأمل لأدوات الديمقراطية يكتشف أن هناك سعيا دائما لاكتساب عقول الأفراد والجماعات والتأثير عليها. الأمر الذي جعل ظروف الحياة السياسية تستحيل بين الحين والآخر إلى شرّ لابدّ منه. وما نموّ البلاغة وتطوّرها إلاّ لأنّ مطالب أجزاء من المجتمع لا تعدو أن تتمثل في امتلاك السامع، دون أن يسأل المتكلم نفسه أكان محقاً أم كان مبطلاً(2).

وعلى هذا الأساس، فإن البواعث المهمة التي نشأت في كنفها البلاغة، هي ظروف مجتمع يتعرض للتغيير ويواجه التحدّي من الخارج، ويحار فيما يأخذ وفيما يترك، لذلك نلاحظ اختلافا في مادة التفكير بين قديم وجديد وطارئ ووافد عليه(3).

---

1)- مقال التصوّر اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 02.

2)- اللغة بين البلاغة والأسلوبية، مصطفى ناصف، النادي الأدبي بجدّة، السعودية، 1989، ص: 25.

3)- اللّغة والبلاغة والميلاد الجديد، مصطفى ناصف، النادي الأدبي الثقافي بجدّة، السعودية، 1989، ص: 107.

ومن دون شكل أن البلاغة نشأت مرتبطة ارتباطا وثيقا بفكرة المقاصد، أي أنّ البلاغة مدارها تحقيق الأهداف والغايات كيفما كانت هذه الغايات، خطابية أو شعرية أو عملية أو ثقافية، أو دعاية[1]. وبمعنى آخر، فإن البلاغة العربيّة منذ نشأها تحاول أن تقف موقفا خاصّا، يتضح هذا الموقف في اختيار الكلمات وترتيبها وفي سعيها إلى الاهتمام بالسامع اهتماماً يشبه العمد والاحتفاء[2].

ومن ثم فإنّ مقاصدنا يجب أن تفترض ويجب أن يقدر مدخلها في تلوين أفكارنا ومواقفنا من المخاطبين[3]، والواقع أننا نتكلم في العادة من أجل أن نبلغ هدفا، هذا الهدف يؤثر لا محالة في القول الذي نقوله، ولذا كثيرا ما نجد الكتاب يلفتون إلى أهدافهم بالعبارات الاحتراسية والاعتراضات التي يبثوها من أجل مواجهتها، والحقيقة أنّ أهدافنا توجّه خطّة عقولنا[4].

وعلى هذا الاعتبار، يمكننا القول إنّ البلاغة القديمة وجّهت توجيهات نفعية بعيدة عن مراسيها العلمية الأصيلة التي كان عليها أن تخلّص التوجه نحوها. فقد أراد بها البعض خدمة غرضه (مقصده) لا غرضها، وهي لذلك تهدف بالدرجة الأولى إلى كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثمّ إقناع ذلك المتلقي عن طريق إشباع مشاعره وفكره معاً،

1)- اللّغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 189.

2)- اللغة والتفسير والتواصل، مصطفى ناصف، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 193، رجب 1415هـ/يناير، كاثون ثان، 1995م، ص: 11.

3)- المرجع نفسه، ص: 16.

4)- المرجع نفسه، ص: 12- 13.

حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطابة/ الخطاب.

وبهذا المعنى، يصح القول: إن البلاغة بخصائصها توجه للقلب والعقل معاً إذ يجمع القول فيها بين المضمون العقلي للحجّة (الشاهد) وصورها البيانيــة، أو بين التبرير العقلي والمحسنات البديعية، لأن مــدار ذلــك هــو الإغــراء والاستغواء قصد الإمتاع والإقناع[1].

فطريق الإغواء هو أسلوب يتّجه نحو مخاطبة العاطفة (ترهيبا وترغيبا)، حيث يلعب على الجوانب النفسية والمشاعر الحسّاسة؛ إنه تغييب شبه كلي للعقلانية. أمّا طريق الحجاج فهو أسلوب يتجه نحو مخاطبة العقل وآلياتــه العقلانيــة، إعمــالا للحواس والإدراك والحدس، وليس بحثا عن الحقيقة المطلقة الــتي دافــع عنــها أفلاطون، أو الحقيقة العقلية التي تغنّى بها ديكارت، بل سعيا إلى الإقناع والتدليل على الممكن الذي أعلن أرسطو ميلاده في القرن الخامس قبل الميلاد[2].

وجدير بالإشارة أنّ هذا التمييز بين الإغواء والحجاج لا ينبغي اعتبــاره انفصالا نهائيا بينهما، لأن الأمر يتعلق بضرورة استيعاب هذه الثنائية القائمــة على استعمال الإغواء كطريقة للإقناع واستعماله كطريقة منبثقة من طبيعــة الحجاج الهادفة إلى الإقناع دون أن تكون بديلا عنه[3].

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، أ. حبيب أعراب، عالم الفكــر المجلــد30، العدد 01، مجلة دورية محكمة تصدر عن لمجلس الوطني للثقافة والفنــون والآداب، الكويت، ليوليو/سبتمبر 2001، ص: 110.

2)- إشكالات التواصل والحجاج، ص: 15.

3)- المرجع نفسه، ص: 15.

1-8- موقع المستمع في الدراسات البلاغية:

يعدّ «المستمع» مكونا أساسا في العمليات التخاطبية والتواصلية وموجها ضروريا لطبيعتها، وبموجب هذا اعتنت البلاغة القديمة بحال المخاطب اعتناءً بالغاً؛ حيث تحدّث العلماء عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، حديثا مفصّلاً وقد أدّت هذه العناية الشديدة ببعض الباحثين إلى الافتراض أنّ البلاغة القديمة تفترض أنّ الإنسان لا يفكر لوجه التفكير، ولا يشعر لوجه الشعور، وإنّما يشعر ويفكر من أجل التأثير في مخاطب أو التغلب عليه[1].

هذا المعنى الّذي أوجزه مصطفى ناصف بقوله: «إن ثقافتنا التقليدية لم تكن تحسن التمييز بين الجميل من ناحية والصواب والخير من ناحية أخرى ولهذا كانت اللّغة في أيدي البلاغة القديمة تخدم مقاصد معينة مختلفة»[2].

ولكن هذا الرأي قد يوهم بأن البلاغة العربية الموروثة لا تهتم بروح الإنسان ومتعته المتسامية على النجاح وجني النفع، بناء على أن الشعر لا يقصد به مخاطبا؛ وإنما هو انبثاق نفسي في صورة لفظية لحالة شعورية تتجسّد في هذا التعبير الفني معبّرا عن صاحبه؛ ذلك أن الشعر في جوهره لا يتغيّا إفادة المخاطب بمضمون معيّن، وإنّما هو تنفيس تلقائي لمشاعر نفيية حسية تجد انطلاقها في هذا العالم الشعري الغامض[3].

ومهما يكن فإن نظام البلاغة القديمة هو نظام إدراك المنافع ودفع المضار، وتحقيق النجاح العملي، ولكن هذا لا يتأتى إلاّ بالصياغة اللّغوية وقدرتها على

1)- مقال التصور اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 03.

2)- اللّغة والبلاغة والميلاد الجديد، ص: 148.

3)- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، رجاء عيد، منشأة المعارف بالإسكندرية جلال حزي وشركاه، ط2، د.ت، ص: 67.

الإبهام والتخييل إلى درجة الإقناع.

وهكذا يتجلى أن المعوّل عليه في البلاغة هو المهارة اللّغوية التي تمتلك القلوب وتستأثر بها، وإن كنّا نجد أنّ هناك من نظر إلى هذه المهارة نظرة ريب(1). كالجاحظ الذي يذكر أنّ البلاغة هي تصوير الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق(2).

ويبدو أن فكرة الجاحظ عن البلاغة مؤداها إيهام المتلقي والعمل على خداعه واستدراجه في غيبة من رويته إلى ما يخالف عقله وعلمه، والواقع أن سحر الألفاظ وجمالها يخدم مبادئ متعارضة فهو يؤيد الدعاية والاستمالة البعيدة كما يعني إغراء الكلام والقدرة غير العادية التي تصرف المتلقي إليها دون أن يعرف لذلك سببا واضحا أو حجة مقنعة(3).

وعلى هذا ينبغي التمييز بين نوعين من الاستعمال اللّغوي؛ أحدهما استعمال حقيقي صادق، والثاني خلاّب ومستحبّ، وربما يجتمع للباطل أوجه استحسان باهرة وحسن البيان يرى الظلماء كالنور(4). أو كما قال الشاعر:

فِي زُخْرُفِ القَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَدْبِيرٍ

ويصبّ في هذا السياق أيضا ما جاء على لسان الرسول الكريم ﷺ: «إنّ من البيان لسحراً»، فهذا القول جمع بين عدّة اعتبارات: بين محبّة القول، بالرغبة والاستماع إليه من ناحية، والتعوذ من البيان الساحر إذا مَلَك عقل

1)- مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 4.

2)- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1/113.

3)- مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 04.

4)- اللّغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 61.

الإنسان ونفسه، ووجه الشبه بين السحر والشعر أو البيان هو التأثير(1).

وإلى جانب هذا، هناك إشارة من القرآن الكريم تدل على تلك المفارقة بين القول الذي يغري بالاستماع إليه، والحق البريء من الزينة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاة الدُنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾(2)، وفي سياق آخر يقول تعالى: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾(3).

ومن هذين المقامين ندرك ما يسمّى بـ«الاستمالة» وقد نظر إليها القرآن الكريم نظرة تحذير إذا لم تكن استمالة غير مشروعة(4).

وغير خافٍ، أنّ الإنسان كان يوما يرى أن كلمة تحرّك الريح، أو تغير طبائع الإنسان وتنقله من طور إلى آخر، وتنزل القمر من السماء، وكيفما كان الأمر يبقى القول؛ إنّ الأفكار في المجال الإنساني يحكمها اعتبار انفعالي وموقف من الآخرين(5).

والخلاصة إن بلاغة التأثير والإقناع والتخييل لم تكن العبارة فيها تستعمل من أجل البيان أو الإشارة المحايدة، وإنما من أجل الاستهواء والكسب والإقناع.

1)- اللّغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 67.

2)- سورة البقرة، الآية: 204.

3)- المنافقون، الآية: 13.

4)- مقال التصور اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 04.

5)- اللّغة والتفسير والتواصل، ص: 21.

هكذا نظر البعض إلى نماذج المهارة اللّغوية مشيرا إلى فتنة الزينة وجمال اللّفظ مع فساد المعنى، ولعلّ هذا ما جعل العقاد يحاول توثيق العلاقة بين مفهومي الجمال والحرية[1]. غير أنه ينبغي أن نتذكر قول ابن المقفع: «إنّ رضا الناس غاية لا تدرك «فقد يكون هذا الكلام صالحا لكل زمان، ولكنه في النطاق التاريخي يعبّر عن اتساع نطاق الخصومة وكيفية معالجتها في العظة والشعر والخطابة والسياسة[2].

وعلى هذا الأساس كان الغرض العاطفي محوراً في التراث البلاغي، حيث كان كل من الشاعر والخطيب يهدفان إلى إقناع الجمهور؛ وذلك بأن يكون هدف الإقناع خارج النص (فعل شيء ما) ثم هناك مقصدية التهييج، التي تكمن في البحث عن الانفعالات العنيفة من حقد، وألم وخوف وغيره، هذه الانفعالات التي تسيطر على الجمهور وبالتالي تؤدي إلى تهييج وقتي وانفجار عاطفي[3].

وفي هذا الإطار قال ابن خلدون: «لقد عبّر العرب بالشعر عن مختلف العواطف والأحاسيس التي تخالجهم، فقد كانوا عن طريقه يؤثرون في غيرهم، ويحملونهم على الحماس، ويغرسون فيهم أخلاقهم، ويدلّونهم على حسن الشيّم»[4].

ويبدو واضحا من خلال هذا القول؛ إنّ تعليم المستمع في مجال الأخلاق كان من أغراض البلاغة القديمة، وطبيعي أن يتضمن ذلك عناصر تعليمية

---

1)- مقال التصوّر اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 05.

2)- اللّغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 24.

3)- اللّغة والتفسير والتواصل، ص: 146.

4)- المقدمة لابن خلدون- طبعة دار الكتاب اللبناني، ص: 1098.

واحتجاجية، كما يتضمن دعوة إلى العقل وتسجيل عناصر النصح والتحذير، ذلك أن التأثير والاستمالة يتطلبان الإبانة والوضوح وأساليب الإقناع[1]، وهذا ما يُثبته قول الجاحظ: «إن مدار العلم على الشاهد والمثل»[2].

هكذا حصرت بعض التعاريف وظيفة البلاغة «في مؤدّى الكلمة اللّغوية في الإبانة والإفصاح والبيان، ويرتبط موضوعها بالحكمة طريقا إلى زكاة النّفس وتربيتها وتأديبها؛ ممّا يبرز الطابع النفعي المنتظر من كل خطاب بليغ، بعيدا عن كل تصوّر فني وتأثير شعري»[3].

وبالإجمال، فإنّ التراث البلاغي لا يهتم بحقائق الأشياء ولكنه يهتم بالتأثير والإقناع وضم الجمهور إلى جانب دون الآخر، فبالبلاغة يتمكن المعنى لديك، ويحبّب إليك وتحسّ بنبله، ويتوفّر له أنسك، وهذا دليل على أسرار التأثير التي تقع في النفس من جرّاء صور البيان، فهي تداعب وتناجي وتحاور مشاعر المستمع وأحاسيسه وآماله وطموحاته[4].

وحتّى يسهل التأثير في نفس المستمع، فقد افترضت البلاغة القديمة أنّ لدى القائل شيئاً محدوداً معروفا يريد أن ينقله إلى السامع، وعليه أن يختار طريقة الأداء، وأن يزيل العقبات التي قد تعترض سبيل عقد الصلة بينه وبين هذا السامع[5].

1)- مقال التصور اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 05.

2)- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ص: 171.

3)- التفكير البلاغي عند العرب، ص: 115

4)- مقال التصوّر اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 05.

5)- اللّغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 190.

ولقد سبقت الإشارة إلى أنّ البلاغة القديمة اتصفت بوجوه من الخداع والرياء المقبول وغير المقبول، ولذلك قال الجاحظ: «اللهم إنّا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نُحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن»(1).

والمقصود من وراء هذا، هو الافتتان بالقول إلى الحدّ الذي يفقد الإنسان معه صوابه، فيعجز عندئذ عن التمييز بين خيره وشرّه، جيّده ورديئه، وإذا كان الناس يتناقدون قسوة الحجّاج بن يوسف الثقفي وعنفه وحزمه في معالجة الأمور(2)، فقد قال عنه مالك بن دينار: «ربما سمعت الحجاج يخطب ويذكر ما صنع به أهل العراق، فيقع في نفسي أنّهم يظلمونه، وأنّه صادق لبيانه وحسن تخلّصه بالحجاج»(3).

ومغزى هذا التأثير هو أن المستمع يواجه نشاطا لا يصمد صموداً تامّاً أمام لغة منزهة بريئة. ومن هنا يتجلى أن المقاصد ذات شأن كبير في البلاغة الموروثة وذلك أنّها تسود غيرها من الوظائف اللّغوية أو تصرفها حيثما شاءت(4).

وهاهنا تظهر المهمة الأساسية التي تضطلع بها البلاغة والتي تتمثل في وصف الطرق الخاصة في استعمال اللّغة وتصنيف الأساليب، بحسب تمكنها في التعبير عن الغرض الذي يتجاوز الإبلاغ إلى التأثير في السامع، أو اقتناعه بما

1)- البيان والتبيين، ج03/1.

2)- مقال التصوّر اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 06.

3)- البيان والتبيين، ج103/1.

4)- اللّغة والتفسير والتواصل، ص: 16.

نقول، أو اشتراكه فيما نحسّ به، وغايتها مدّ المستعمل بما تعتبره أنجع طريقة في بلوغ المقاصد[1].

وإذا كانت البلاغة تتّخذ اللّغة سبيلا لتحقيق مراميها، فلا غرو أن نشير إلى أنّ اللّغة في بدايتها كانت تمثل وظيفة اجتماعية يمارسها الإنسان ليؤكّد بها ذاته، وليستشعر عن طريقها وجوده متفاعلا مع غيره ممّن يشاركونه هذه الوظيفة[2].

وعلى العموم، إن للّغة وظيفتين جوهريتين هما: التعبير والتوصيل، وبناء على فكرة المقاصد، فقد كانت اللّغة تستعمل لغايات مثل التشريع، أو خدمة أغراض علم الكلام، أو إذكاء العصبية، أو التجمّل الواجب لكل من يتصدّى لمنصب من مناصب الحكم أو الرئاسة[3].

وانطلاقا من هذا فقد انطبعت محاولة الجاحظ بطابع نفعي واضح يمكن أن يعدّ بدون مبالغة أكمل محاولة في التراث اللّغوي العربي لتأسيس ما يسمّى «بنفعية الخطاب» (La Pragmatique du discours) وممّا يلاحظ على الجاحظ أنّه تناول الخطاب اللّغوي من زاوية كونه عملية تواصل (Communication) يستوجب قيامها حدّا أدنى من الأطراف لا يقل عن ثلاثة: المتكلم، والسامع، والكلام، والرابط بين الأطراف هو الوظائف الثلاثة: الوظيفة الإفهامية، والوظيفة الخطابية، والوظيفة الشعرية، حيث إنّ الأولى تقوم من القيمة مقام الأصل. فالجاحظ لا يتصور خطابا لغويا مهما كان مستواه، لا

1)- التفكير البلاغي عند العرب، ص: 47.

2)- مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 06.

3)- اللّغة والبلاغة والميلاد الجديد، ص: 151.

يكون الفهم والإفهام قاعدته. وغاية هذه الوظائف جميعا هي السّامع[1].

وهكذا، فبالبلاغة ينتصر الشاعر أو الخطيب لقضيته ويسوغها في النفوس، ويتم تمكينها في الذات «إنها إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة»[2] ولعلّ هذا ما جعل المتكلمين والمعتزلة يعتبرون تعلّم البلاغة غاية في حدّ ذاته، فهي تمكنهم من أداةٍ ناجعة، يظهرون بها على خصومهم في المناظرات والمجادلات[3].

ووفقا لذلك، فإن البلاغة هي الطريقة والوسائل المتبعة في الكلام حتى تنفذ معانيه إلى عقل وقلب السامع، مع ما يقتضيه ذلك من محسنات وإبانة وإظهار وإقناع، ويعود هذا التصور إلى كون البلاغة قد نشأت في أحضان الصراع العقائدي، فقد وصف القرآن الكريم بعض الناس بأن لهم ألسنة حادّة، ووصف طائفة أخرى بأن لهم القدرة على الجدل والخصومة، وبديهي أن تكون اللّغة في خضمّ هذه الظروف ظاهرة من مظاهر الصراع وليس السلام[4].

وتبعا لهذه الظروف تحولت اللّغة الجميلة إلى وسيلة من وسائل القهر والخوف، يمكن أن تؤدي في حياة المجتمع إلى الشرّ، على نحو ما يمكن أن تؤدي به إلى الخير.

وممّا تجدر الإشارة إليه بعد هذا، أن اللّغة في الموروث البلاغي كانت خادمة للمنطق والإقناع، متأثرة بالمنطق الأرسطي الذي أدّى بالبلاغة القديمة

1)- التفكير البلاغي عند العرب، ص: 299.

2)- العمدة، في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، القاهرة، مطبعة 1925، ص: 245.

3)- اللّغة والتفسير والتواصل، ص: 136.

4)- مقال التصور اللّغوي في البلاغة القديمة، ص07.

إلى العجز عن إمكانات التعبير اللّغوي التي تتجاوز البنية السطحية، وتوغل في شبكات الأبنية التحيّة للتركيب، ويعود هذا العجز إلى اعتماد البلاغة على ربط اللّغة بالواقع وحصر وظيفتها في الإشارة إليه، وهذا ما أدّى إلى الاعتناء بالحالة العقلية للمخاطب أكثر من الاعتناء بحالته الوجدانية ونزوعها إلى الوضوح بما هو مفهوم عقلي صرف(1).

ومن آثار المنطق الأرسطي ولع البلاغيين العرب بالتقسيمات والتفريعات الجامعة المانعة بما فيها من حدود ورسوم، ممّا كان له الأثر في حقائق البلاغة وفقدان رونقها الحيوي(2).

ومن منظور مصطفى ناصف، فقد كانت البلاغة القديمة تقوم على تعقل الأشياء أكثر من قيامها على وجدانها وأنها كانت تهتم بالعقل(3)، الّذي ينجرّ عنه حتما تراجع الخيال وانحصار قدراته وتحديد فعاليته في التجربة الشعرية يظهر ذلك جليا في تمسّك النقاد بالوضوح وعدم الإبعاد(4).

ونخلص بعد هذا كلّه إلى أن المنهج البلاغي القديم كان منهجا خطابيا نظريا شديد الاهتمام بالقسمة والتفريع، يستكثر من الشواهد والأمثلة، و لم تكن البلاغة مميزة من الثقافة الفلسفية أو العقلية(5)، وهي لذلك -أي البلاغة- كانت تزعم أن الذّهن الإنساني يتعامل مع الخاص منذ البدء وينتقل

1)- البلاغة والأسلوبية، ص: 182.
2)- اللّغة والبلاغة والميلاد الجديد، ص: 150.
3)- المرجع نفسه، ص: 151.
4)- مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 08.
5)- اللغة والتفسير والتواصل، ص: 145.

منه إلى العام[1]، لذا عيب عليها أن أفقها لم يتجاوز الوحدات الجزئية، أو أنها كانت تميّز بين الجزئي والكلي بمقتضى المنطق والإقناع[2] في حين أن البلاغة الحديثة ليس لها حاجة دائمة إلى حدّة هذا التمييز.

II البلاغة الجديدة والخطاب:

ولد مصطلح البلاغة الجديدة عام 1958م في عنوان أحد الكتب الشهيرة التي وضعها المفكر البولوني المولد البلجيكي المقام «بريلمان شارل» (Perelman Charles) تحت اسم «مقال في البرهان: البلاغة الجديدة» يعتمد هذا الكتاب على محاولة لإعادة تأسيس البرهان أو المحاجّة الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع كتقنية خاصّة ومتميّزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر[3].

هذا عن مدرسة «بروكسل» البلجيكية، أما عن الشكلانية الروسية، فإنه يلاحظ عموما على مبادئها أنها تدور حول وظيفة اللّغة التواصلية، وأنّها ليست منبتة الصلة بالتقاليد البلاغية الكلاسيكية، هي اعتبار أن منظر الخطاب البرهاني يهتم بدوره بالأشكال البلاغية كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان[4].

---

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، د.صلاح فضل، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 164، 1992، ص: 133.

2)- اللّغة والتفسير والتواصل، ص: 129.

3)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 73.

4)- بلاغة الخطاب وعلم النفس، ص: 73.